جراء ذلك، ولم تستطع القيادات السياسية والوجهاء مسايرة ما ذهب إليه المتظاهرون، وما رفعوه من شعارات سياسية، فحاول بعضهم التوسط لدى سلطات الانتداب للافراج عن المعتقلين، فثارت ثائرة الحياة وكتبت تحت عنوان: «اسكتوا يا أعوان السلطة»[٢٢] تقول: «إن الشباب الذين استقبلوا أحكام القوة... يرفضون أن يستجدوا العفو استجداء، ويعتبرون أنفسهم أحق بأن تطلب القوة العاسفة منهم العفو والصفح. إن هذا الأسلوب القديم البالي: أسلوب نلتمس الافراج وندجو العفو، قد دالت دولته، وانقضى زمنه، ولا يلجأ إليه إلا كل خوار العزيمة، مزعزع العقيدة». وفي العدد ذاته، توجهت الجريدة إلى اللجنة التنفيذية بالتساؤل واللوم، إزاء صمتها عما جرى في نابلس من قمع وإرهاب واعتقال، وقالت: «نريد أن نخاطب مكتب اللجنة التنفيذية قائلين ان الأمة التي اختارت أعضاءه ليدافعوا عنها، وليسهروا على قضيتها، ترى في إهمالهم شأن صفوة شبابها الأحرار المضطهدين هروبا من القيام بأقدس الواجبات، وتقاعسا عن الاضطلاع بأشرف المهام... أيجوز أن يقاسي السجين المريض أمض الآلام، وأن يظل أعضاء اللجنة التنفيذية وليس فيهم سجين مريض أو غير مريض سادرين في بيداء الاهمال؟ أهذه هي الأمانة يا أعضاء اللجنة؟ إن الأمة تنتظر كلمتكم. فلم الصمت؟ هل في الأمر سر؟».

وقد جاء المقال الافتتاحي للحياة في عددها ٣٣٣ تحت عنوان: «قادة»[٢٣] الحكم النهائي على طبيعة القيادة السياسية الفلسطينية، آنذاك، واصفة إياها بمجموعة من الشيوخ القادة، دلالة على تاريخية هذه القيادة التي أضحت ضعيفة، غير قادرة على القيادة الصحيحة، «إن هؤلاء الشيوخ لا يعملون في حقل الوطنية بدافع وجداني طبيعي، وإنما هي الظروف... ومحاولتهم المحافظة على نفوذهم الزائف تحفزهم للتبجح بالوطنية، والظهور بمظهر الوطنيين والحريصين على مصلحة هذه الأمة، ودليلنا على ذلك الضعف الذي يبدو في سكناتهم وحركاتهم، والرعب الذي يقضُّ مضاجعهم... إنهم قادة، ولكنهم يقودون الشعب إلى الشقاء... شروط الزعامة في الأمم الحية: تضحية وإخلاص وكفاءة، وشروط الوجاهة في بلادنا: حكومية ومال ولباقة».

الموقف من النضال الاجتماعي والدفاع عن الأرض

إلا أن هذه الدعوة الصريحة والشجاعة، ضد الانتداب البريطاني والقيادات التاريخية، في فلسطين، لم تُنسِ كُتّاب الصحيفة القوميين، جذورهم وتحالفاتهم مع الأسرة الهاشمية، فعندما توفي «الملك حسين» سارعت الحياة إلى إبراز خبر وفاته قائلة: «مات الملك حسين بن علي الهاشمي القرشي، مطلق أول رصاصة في سبيل استقلال العرب، ورافع أول راية تمثل تاريخ العرب، ومنشىء أول دولة مستقلة من دول العرب في نهضتهم الحديثة»[٢٤]. وتابعت الحياة رثاءه، مفردة لذلك مقالاتها الافتتاحية وأبرز أخبارها.

فكتب زعيتر عن «الحسين» يقول: «وهو الذي أوجد القضية العربية بمعناها الصحيح، وهو الذي جاهر بأن الاستقلال التام للأمة العربية المتحدة هو غاية الكفاح وهدف الجهاد، فإذا مات اليوم أبو القضية، فالقضية لن تموت، وإذا مات قائد الاستقلال، فالكفاح للاستقلال باقٍ مستمر»[٢٥].